الدرس السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد :

بابٌ الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وقول الله تعالى : {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [يوسف:١٠٨]] .

****

هذه الترجمة ((**بابٌ الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله**)) أي : الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص الدين له جل وعلا ، وبيان فضل ذلك وعظيم ثوابه وجزيل أجره عند الله تبارك وتعالى .

والإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى اعتنى عناية دقيقة جداً بتبويبات هذا الكتاب وحُسن ترتيبه والتدرج في بيان مطالبه ومقاصده وغاياته ؛ فبدأ رحمه الله كما عرفنا سابقاً في بيان مكانة التوحيد وعظيم أجره ، ثم بيَّن ما يتعلق بفضائل التوحيد وتكفيره للذنوب ، ثم بيَّن المكانة العلية التي هي تحقيق التوحيد بتصفيته وتنقيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ، ثم انتقل رحمه الله تعالى إلى التحذير من ضده وهو الشرك بالله سبحانه وتعالى وبيان وجوب الخوف منه وأنه أخطر الذنوب وأعظم الآثام وأكبر الجرائم .

وبتحقيق تلك الأبواب يكون العبد كمَّل نفسه؛ قياماً بالتوحيد وعملاً على تحقيقه وخلاصاً من ضده وهو الشرك بالله سبحانه وتعالى ، فيأتي بعد ذلك مرحلة أخرى عظيمة تتعلق بالآخرين ألا وهي: أن يدعو الآخرين إلى هذا الخير العظيم الذي نفعه الله به ، وأن يوصل هذا الخير إلى الغير تعليماً ودعوة وبيانًا ونصحاً .

وأيضاً في هذا الترتيب تنبيهٌ من الشيخ رحمه الله تعالى إلى أن العلم قبل الدعوة ؛ أن يعْلم ويتعلم ويتفقه ثم يعمل ثم يدعو الآخرين إلى ما تعلمه وعمل به ، لا أن يكون بدؤه بالدعوة قبل تعلُّمه وتفقهه ، لأنه في هذه الحال ستكون دعوته عن غير علم وسيكون تعليمه عن غير بصيرة ، وإذا كان الأمر كذلك فإنما يترتب على دعوةٍ مثل هذه من المضرة أكثر مما يُتوقع فيها من نفع ومصلحة ، كما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : «من عبَد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح» ، ومثله يقال في الدعوة؛ «من دعا إلى الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح» . وهل انتشرت البدع والضلالات وأنواع الخرافات والأباطيل إلا بالدعوة بغير علم وبغير بصيرة !! ولهذا

أول ما يكون التعلُّم والتفقه والبصيرة ، ثم العمل بذلك ، ثم دعوة الآخرين ، قال الله تعالى : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد:١٩] فبدأ بالعلم قبل القول والعمل .

وهذا الترتيب الذي سلكه الإمام المجدد رحمه الله في كتابه مستقى من السورة العظيمة الوجيزة البليغة سورة العصر ، وبهذا وصفها عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه ، وكفى بها حجة كما يُنقل ذلكم عن الشافعي رحمه الله ، فجاء الترتيب في تحقق النجاة والسلامة من الخسران على هذا النحو: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهذا القدر فيه تكميل النفس علماً وعملاً ، ثم يأتي بعده المرحلة الأخرى ألا وهي إيصال هذا الخير إلى الآخرين ؛قال : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي دعوةً إليه وترغيباً فيه وحثاً عليه ، ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أيضاً ﴿بِالصَّبْرِ﴾ أي على الأذى فيما ينالهم في الدعوة ، وأيضاً تواصوا به عموما في العمل بالطاعة واجتناب المعصية والصبر على أقدار الله تبارك وتعالى المؤلمة .

الشاهد؛ أن الإمام رحمه الله تعالى أحسن أيَّما إحسان في تبويبه لهذا الكتاب وحُسن ترتيبه ؛ فجاء هذا الباب «باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله» في مرحلة مناسبة؛ بعد العلم بمكانة التوحيد وفضله وتكفيره للذنوب ، وبيان فضل تحقيقه وتكميله وإيضاح ذلكم بالدلائل والشواهد ، ثم التحذير من ضده وهو الشرك بالله سبحانه وتعالى ، فبعد العلم بهذه التفاصيل وهذه التقريرات العظيمة والعمل بها تأتي هذه المرحلة الدعوة أو الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله .

وقوله رحمه الله: ((**الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله**)) ؛ المراد بالدعاء : أي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله. وشهادة أن لا إله إلا الله هي كلمة التوحيد ، فالدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله هي الدعوة إلى التوحيد ؛ لأن هذه هي كلمته ، ولهذا سيأتي معنا في الباب ((فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)) وفي رواية ((أن يوحدوا الله)) ، وبهذا يُعلم أن الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله هو الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى .

وبهذا أيضاً يُعلَم أن «لا إله إلا الله» لا تنفع صاحبها إذا كان حظه منها مجرد النطق بلفظها دون أن يحقق مقصودها وغايتها وهو توحيد الله، فـ«لا إله إلا الله» هي كلمة التوحيد ، فإذا كان حظ الإنسان منها مجرد نطقها دون التوحيد الذي هو حقيقة هذه الكلمة ومقصودها لم يكن بهذا النطق المجرد من أهلها ، لأن أهلها هم أهل التوحيد ، لأنها هي كلمة التوحيد ، فمن قالها عن علمٍ بما تدل عليه وتحقيقٍ لما تقتضيه من إخلاص الدين لله والبراءة من الشرك والخلوص منه كان بذلكم من أهلها . أما أن يقولها قولاً مجرداً أو ينطق بها مجرد نطقٍ دون أن يعْلم ما هي أو ما تدل عليه أو ما هو مقصودها !! أو أن يقولها وينقضها بفعاله ؛ فهيهات أن يكون من أهلها ،

يقولها نطقاً بلسانه وينقضها بفعاله دعاءً لغير الله وذبحاً لغير الله واستغاثةً بغير الله وطلباً للمدد من غير الله ؛ لا يكون بذلك من أهلها بمجرد نطقه بها .

فإذاً قوله رحمه الله ((**الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله**)) ليس المقصود به الدعاء إلى أن ينطق الناس بألسنتهم هذا اللفظ «أشهد أن لا إله إلا الله» دون أن يفهموه ودون أن يعوه ودون أن يحققوا المقصود منه ، ليس هذا هو المراد ، بل المراد بالدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله : أي الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص الدين له جل وعلا والبراءة من الشرك كله .

وشهادة أن لا إله إلا الله هي شهادة التوحيد ، والتوحيد الذي هو مدلول هذه الكلمة يقوم على ركنين لا توحيد إلا بهما : النفي والإثبات ؛ التوحيد لا يكون إلا بالنفي والإثبات «لا إله» ، «إلا الله» ؛ النفي وحده ليس توحيداً ، والإثبات وحده ليس توحيداً ، وإنما التوحيد نفي وإثبات ، ولا يكون المرء موحدًا إلا بهما . «لا إله» : نفي للعبودية عن كل من سوى الله ، وهو نفي عام . و«إلا الله» إثباتٌ خاص للعبودية بكل معانيها لله وحده لا شريك له . ولهذا تجد في بعض الأذكار المأثورة الشرعية يضاف إلى هذه الكلمة «وحده لا شريك له» ؛ «وحده» تأكيد للإثبات ، «لا شريك له» تأكيد للنفي ، اهتمام بمقام التوحيد . فلا إله إلا الله هي كلمة التوحيد ، ولا توحيد إلا بالنفي والإثبات الذين قامت عليهما هذه الكلمة كلمة التوحيد .

إذاً المراد بشهادة أن لا إله إلا الله هو هذا؛ أن يوحَّد الله جل وعلا وأن يُخلَص له الدين ، ولا يكون توحيده إلا بهذين الأصلين العظيمين والأساسين المتينين : نفي العبودية عن كل من سوى ، وإثبات العباد العبودية لله سبحانه وتعالى وحده .

أورد رحمه الله أول ما أورد من أدلةٍ لهذه الترجمة قول الله سبحانه : ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف:١٠٨] .

﴿قُلْ﴾ : أي أيها النبي ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ : أي هذا نهجي وطريقي ومسلكي ، وهو مسلك النبيين من قبله ، فبهم عليه الصلاة والسلام اقتدى وعلى نهجهم سار ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠] ، فهذا الذي فعَله النبي عليه الصلاة والسلام؛ فنهْجه نهج النبيين من قبله ، ونهجهم واحد ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥] ، ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ﴾ النذر : أي الرسل ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحقاف:٢١] ، ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ

رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٥] . فالنبيون نهجهم واحد كلهم دعاة إلى الله على بصيرة بالحجج البينات والآيات الواضحات والبراهين الساطعات . فهذا نهجه عليه الصلاة والسلام وهو نهج أتباعه من بعده ، فأتباعه من بعده دعاةٌ إلى الله ودعوتهم إلى الله على بصيرة .

﴿ قُلْ ﴾ أيها النبي ﴿ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ أي هذا هو مسلكي وطريقي يتلخَّص في أمرين : ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ ، ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ ؛ وهذا هو النهج وهذا هو الطريق ، نهج النبي عليه الصلاة والسلام ونهج النبيين من قبله ونهج أتباعه عليه الصلاة والسلام من بعده يتلخص في هذين الأمرين : دعوة إلى الله ، وعلى بصيرة .

﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ وهذا فيه الإخلاص والدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى . ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ أي لا إلى غيره ، فدعوتي إلى الله ، دعوتي للناس هي دعوة إلى الله أن يوحدوا الله وأن يخلصوا الدين له وأن يعبدوه وحده وأن يفردوه جل وعلا بالعبادة وأن لا يجعلوا معه شريكا وأن لا يتخذوا نديداً ؛ هذه دعوتي ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ أي إلى الله وحده دون شريك .

وفي هذا أيضا الإخلاص وأن من دعا إلى الله يجب أن تكون دعوته إلى الله عز وجل خالصة ، لأنه كما سيأتي معنا في المسائل التي يوردها رحمه الله «أن في هذه الآية تنبيه على الإخلاص» أي في الدعوة، قال : «لأن كثير من الناس وإن دعا إلى الحق إنما يدعو إلى نفسه»، يعني بعض الناس قد يدعو إلى الحق يعني يحث الناس مثلا على الإسلام على الصلاة على الأعمال الصالحة لكنه في نفسه يدعو إلى نفسه ، كأن يكون مرائياً أو مسمِّعاً أو طالباً للشهرة أو مريداً للسمعة أو كثرة الأتباع ، أو أيضاً ما يسمى في زماننا كثرة الأصوات أن تكون الأصوات له عند الناس كثيرة بحيث أي مناسبة معينة ويطلب التصويت تكون الأصوات كثيرة، فيكون مقصده التكثير . فهو يدعو إلى الحق يعني هو لا يدعو إلى بدعة ، يدعو إلى الحق إلى الإسلام إلى مثلاً السنة إلى الأعمال الصالحة يحذِّر من المحرمات إلى غير ذلك لكنه في نفسه يريد بذلك مثلا شهرة أو يريد أصواتاً أو يريد سمعةً أو يريد رياءً .

فالآية فيها التنبيه على الإخلاص، وأن الداعي إلى الحق لا يريد أتباعاً أو مؤيدين أو أصواتاً ..هذه كلها لا يبالي بها . الإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول : «وددت لو أن الناس دخلوا في دين الله أفواجا ولو قرِّض جسمي بالمقاريض» ، ما يريد شيئا لنفسه وإنما لله سبحانه وتعالى . والنقول عن السلف رحمهم الله تعالى في بيان صدقهم وإخلاصهم وبُعدهم عن مظاهر الرياء والسمعة وغير ذلك كثيرة جدًا ؛ تدل على المكانة العلية التي كانوا يتبوءونها صدقاً وإخلاصاً ونصحا .

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ والبصيرة: العلم والنور والضياء والبرهان والحجة ؛ أي أن دعوتي إلى الله دعوة عن علم وبصيرة بدين الله ، وفهم ومعرفة وفقه بدين الله سبحانه وتعالى . فهذه دعوة النبي

دعوةٌ إلى الله على بصيرة أي: معرفةٍ وفقهٍ ودراية بدين الله سبحانه وتعالى . وهذا فيه أن الدعوة إلى الله لابد أن تكون بعلم ، البصيرة هي العلم، لابد أن تكون بعلمٍ بما يدعو إليه . فالنبي عليه الصلاة والسلام دعوته على بصيرة، وأتباعه دعوتهم أيضاً على بصيرة ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ .

لاحظ أمرًا واضحا ظاهرا مستفاداً من هاتين الكلمتين اللتين بهما تتلخص دعوة النبي ودعوة النبيين ﴿ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ فيها الإخلاص والمتابعة ، وهما أساس قبول الأعمال ؛ الإخلاص في ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ ، والمتابعة ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ والبصيرة : هي أن ينهج الداعي نهج النبي عليه الصلاة والسلام وأن يسلك مسلكه ، لا أن يُحدث أشياءً ويخترع أموراً . وربما بعض الناس يدعو الناس بالقرآن ويدعوهم بالسنة وبالآيات وبالأحاديث ثم لا يجد من يتبعه في هذه الآيات فيبدأ يُحدِث لهم أشياء ، قال السلف رحمهم الله «فاحذروه وبدعته» ، يقول : ما هم بمتبعي حتى أحدث لهم شيئا ؛ فيبدأ بالإحداث والاختراعات والمحدثات ويبني على القصص والحكايات والمنامات المزعومة وإلى آخره ، وبمثل هذه الطرائق الأتباع في غضون أيام أو أسابيع قليلة يكثرون كثرةً سريعة جداً ، لأن الناس ينفُق عندهم الدجل والخرافة ، خاصة أن العوام ليس عندهم نقد النقَّاد فإذا زُخرف لهم القول وزُينت لهم العبارة وذُكرت لهم المنامات المخترعة والقصص والحكايات تأثروا تأثراً سريعا ونفق فيهم الباطل نفوقاً شديدًا .

فالدعوة تكون إلى الله خالصة ، وعلى بصيرة فيها الموافقة والاتِّباع واللزوم لهدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ ؛ قف هنا عند العطف في قوله ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾؛ العطف هنا على ماذا ؟ هل هو عطف على الضمير في قوله ﴿أَدْعُو﴾؟ أو هو عطف على الضمير في قوله ﴿أَنَا ﴾؟ هل هو على هذا أو ذاك ؟

❖ إن كان على الأول؛ فمن اتبعه دعاة إلى الله .

❖ وإن كان على الثاني؛ فمن اتبعه على بصيرة في دعوتهم إلى الله .

❖ وأهل العلم قالوا : العطف هنا يعود على الأمرين معاً ؛ فمن اتبعه هم الدعاة إلى الله على بصيرة ، فإن كان داعياً إلى الله بلا بصيرة لم يكن متبعاً له ، وكذلك إن كان عنده بصيرة ومفرط في دعوته إلى الله سبحانه وتعالى أيضاً لم يكن كذلك ، فأتباعه هم الدعاة إلى الله تبارك وتعالى على بصيرة ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ .

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾؛ والتسبيح : تنزيه الله جل في علاه وتقديسه وتبرئته عن النقائص والعيوب، وعن كل ما لا يليق به ، وعن أن يكون له مثلٌ أو نظير ؛ تعالى وتقدس . ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ : أي أنزه الله .

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا فيه البراءة من الشرك وأهله ، وأنه منهم براء وأنهم منه برئاء ، ليس منهم وليسو منه .

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ : أي أنزه الله ؛ وهذا فيه تنزيه الله جل وعلا عن كل ما لا يليق به ومن ذلكم بل من أخطر ذلكم أن يُجعل معه الشركاء وأن يُتخذ معه الأنداد ، وفي آيةٍ أخرى يقول جل وعلا : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧] تنزه وتقدس مَن هذا شأنه أن يُتخذ معه الأنداد أو أن يُجعل معه الشركاء سبحانه وتعالى .

فهذه الآية العظيمة فيها الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى ، وأن الدعوة تكون بالعلم والبصيرة بدين الله ، وأن هذا هو نهج النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ونهج أتباعه من بعده .

قال رحمه الله تعالى :

عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له : «إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله» . وفي رواية : «إلى أن يوحدوا الله» ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلِمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلِمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتُرد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» أخرجاه .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث العظيم حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وهو حديث عظيم جداً في بيان المنهج الذي ينبغي أن يكون عليه الدعاة ، فهو يرسم المنهج الصحيح القويم الذي ينبغي أن يسلكه الداعية ؛ إذ إنَّ هذا الحديث يتضمن وصيةً من النبي عليه الصلاة والسلام أوصى بها أحد الدعاة إلى الله عندما بعثه إلى اليمن؛ وهو معاذ بن جبل رضي الله عنه وأرضاه ، فأعطاه هذه الوصية ورسم له هذا المنهج وبيَّن له أولويات الدعوة ، والطريق الذي ينبغي أن يسلكه ، والمحاذير التي ينبغي أن يتجنبها ، والعدة التي ينبغي أن يستعد بها في دعوته إلى الله ؛ كل ذلك جمعه النبي عليه الصلاة والسلام لمعاذ في هذه الخلاصة العظيمة التي اشتمل عليها هذا الحديث .

وأول ما بدأ عليه الصلاة والسلام في بيانه لمعاذ رضي الله عنه أن قال له : ((**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب**)) ؛ وهذا يستفاد منه: أن الداعي إلى الله سبحانه وتعالى إذا أراد دعوة قومٍ في بلدٍ ما أن يعرف حالهم وأن يقف على حالهم ، فمعرفة حال المدعوين هذا من الأمور المهمة ، ونبَّه النبي عليه الصلاة والسلام إلى ذلك بقوله ((إنك تأتي قوما من أهل الكتاب)) إذاً تنبه ولتكن على معرفة بحال من ستدعوهم ، فهم أهل كتاب بمعنى أن هيئ نفسك ؛

تهيئةً جيدة في دعوتهم وأيضاً مجادلتهم وأيضاً التهيؤ لرد ما قد يثيرونه من شبهات ؛كل ذلك كن فيه على تهيئ تام واستعداد تام ، لأن الدعوة تختلف بحسب حال المدعو ، وهذا أيضاً أخذه العلماء من قول الله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل:١٢٥] قالوا هذه ثلاث مراتب في الدعوة بحسب حال المدعوين ، فشخصٌ يكتفى معه بدعوته بالحكمة ، وشخصٌ يحتاج إلى أن يُزاد في ذلك الموعظة ويوعظ ويُخوَّف ، وشخصٌ يحتاج إلى المجادلة بالتي هي أحسن ؛ يكون عنده شيء من الشبهات أو الإشكالات أو نحو ذلك فيحتاج إلى مجادلة . فهذا نبه إليه النبي عليه الصلاة والسلام هذا التنبيه اللطيف بقوله **((إنك تأتي قوما من أهل الكتاب))**.

ثم نبهه عليه الصلاة والسلام على مراعاة الأولويات في الدعوة ومراعاة الأهم فيما يُبدأ به في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؛ قال : ((**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**)) أي ابدأ بهذا قبل كل شيء . والقوم أهل كتاب ، وأهل الكتاب عندهم كلمة «لا إله إلا الله» ومع ذلك قال له النبي عليه الصلاة والسلام : ((فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)) !! وهذا فيه أن من ينطق الكلمة أو الكلمة موجودة عنده أو قرأها في كتابٍ عنده يحتاج أيضًا إلى أن يُدعى إليها إذا كان واقعه العملي وحياته التطبيقية مخالِفة لهذه الكلمة ومصادِمة لها ، فيقول «لا إله إلا الله» مثلا ويقول عزير ابن الله ، أو يقول «لا إله إلا الله» ويقول المسيح ابن الله!! أين «لا إله إلا الله» في حقيقة أعماله والمسلك الذي يسلكه ؟!

فقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ : ((**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**)) ؛ ما المراد بأول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ؟ أي أن يوحدوا الله ، ولهذا أورد المؤلف رحمه الله الرواية الأخرى للحديث قال : ((**وفي رواية «إلى أن يوحدوا الله»**)) ؛ وهذا فيه أن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله المراد به الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص الدين له .

والمشركون الذين بعث فيهم النبي عليه الصلاة والسلام وهم أهل لسانٍ عربي يفهمون مدلولات الألفاظ ومعانيها لما قال لهم عليه الصلاة والسلام ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) فهموا ما تدل عليه هذه الكلمة من التوحيد والبراءة من الشرك فقالوا كلمتهم التي ذكرها الله عز وجل في القرآن ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ(٥)وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾[ص:٥-٦] ؛ أخذوا يتواصون بالصبر على الآلهة والاستمساك بالشرك بالله سبحانه وتعالى، بل إنهم أخذوا يتفاخرون في مجالسهم أننا سلِمنا من هذه الدعوة التي كادت أن تُبعدنا عن هذه الآلهة ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾[الفرقان:٤٢] يعني لولا أننا أهل صبرٍ وإلا كِدنا نُضَل عن الآلهة ونُبعَد عن هذه المعبودات ، مع أنه عليه الصلاة والسلام إنما خاطبهم بقوله ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) .

ولما كان عليه الصلاة والسلام يقول لعمه أبي طالب وهو يحتضر لما أدركته الوفاة يقول له ((يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله)) ، وعنده أبو جهل وبعض المشركين ماذا كانوا يقولون له ؟ يقولون له "بل على ملة عبد المطلب" لماذا ؟ لأن القوم يفهمون أن «لا إله إلا الله» تعني إبطال تلك الملة التي هي اتخاذ الأنداد والشركاء والمعبودات ، فقالوا "بل على ملة عبد المطلب" ، والنبي صلى الله عليه وسلم يعيد عليه ((يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله)) وهم يقولون له "بل على ملة عبد المطلب" ، ومات وهو يقول هو على ملة عبد المطلب .

فـ«لا إله إلا الله» هي توحيد الله ، ((فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)) : أي أن يوحدوا الله وأن يخلصوا الدين له وأن يفردوه سبحانه وتعالى وحده بالعبادة .

قال : ((**فإن هم أطاعوك لذلك**)) يعني هذه المرحلة الأساس التي يبنى عليها الدين ، فإن هم أطاعوك لذلك تنتقل للمرحلة الأخرى ، ((فإن هم أطاعوك لذلك)) يعني تقيم على دعوتهم إلى هذا الأصل توحيد الله فإن هم أطاعوك لذلك تنتقل بعد ذلك لدعوتهم إلى الصلاة . هل يسوغ أن يُدعَو إلى الصلاة وهم لم يوحِّدوا بعد؟ أي شيء تفيدهم صلاتهم إن كانوا لا يوحِّدون الله!! وقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥] ، فالصلاة مع الشرك لا تنفع صاحبها ولا تكون مقبولة ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة:١٧] ليسوا عماراً لمساجد الله إن كانوا مقيمين على الشرك دعاءً لغير الله واستغاثةً لغير الله وطلباً للمدد من غير الله وذبحاً لغير الله ، أي صلاة تنفعهم إذا كانت هذه حالهم وهم على الشرك بالله سبحانه!!

فإذاً إصلاح التوحيد أولاً ، إصلاح العقيدة أولا؛ لماذا ؟ لأنها أساس بناء الدين . الدين بناء عظيم قيامه على التوحيد ، الدين شجرة عظيمة أساسها التوحيد ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:٢٤] أي نفعٍ للفرع إذا قُطع الأصل !! فالتوحيد هو الأصل الذي يقوم عليه الدين والأساس الذي يقوم عليه بناء الدين ، أرأيتم لو أن شخصاً أقام بناءً من طوابق عديدة قل عشرة عشرين لكن لم يعتنِ بالأصل ، لم يثبِّت الأصل ولم يرسِ أعمدته وأصوله ماذا سيكون البناء ؟ حتى لو جمَّله ونمَّقه وحسَّنه وأدخل عليه المجمِّلات والمحسنات ماذا سيكون مآل هذا البناء ؟ سرعان ما ينهار ويتصدع ويسقط . فالأساس الذي به يبُدأ ويقدَّم الدعوة إلى توحيد الله ، ويُنتقل للمرحلة التي بعدها بعد أن يفهَّم الناس التوحيد ويعلَّم الناس التوحيد ثم ينتقل إلى الأمور الأخرى ، ولهذا قال له ((**فإن هم أطاعوك لذلك**)) .

ما مفهوم المخالفة هنا لقوله ((فإن هم أطاعوك لذلك)) ؟ لو أنه دعاهم للتوحيد شهر شهرين ثلاثة أربعة سنة سنتين وما أطاعوه يقول لهم عندي أمر آخر سأدعوكم إليه ، ويبدأ يدعوهم إلى الصلاة وهم لم يطيعوه بعد في التوحيد؟ إذاً يكون هو نفسه ما فهم الدعوة التي يدعو إليها والأساس التي تبنى عليه الدعوة ، ولهذا قال له ((فإن هم أطاعوك لذلك)) مفهوم ذلك أنهم إن لم يطيعوا لا يدعو إلى الصلاة ، لأنهم لو دعوا إلى الصلاة مثلا وقبِلوا وصلُّوا وهم لم يوحدوا لم تنفعهم صلاتهم ، وإن أتوا بجميع الصلوات فرضها ونفلها لا تنفعهم ، لأن الصلاة وغيرها من أعمال الدين إنما تكون نافعة لصاحبها إذا كانت قائمة على التوحيد والإخلاص لله سبحانه وتعالى .

ولهذا قال له عليه الصلاة والسلام : ((**فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة**)) إذاً لا يدعَو إلى الصلاة إلا بعد أن يقبلوا التوحيد .

طيب هل هذا يعني أن الكفار ليسو مخاطبين بفروع الشريعة ؟ وأن الله سبحانه وتعالى يوم القيامة لا يعاقبهم على تركهم للصلاة وعلى تركهم لفرائض الدين ولا يعاقبهم أيضاً على الفواحش والمحرمات والآثام ؟ هل هم ليسو مخاطبين بفروع الشريعة ؟ بل هم مخاطبون بفروع الشريعة ، لكن هنا قال له لا تنتقل إلى الصلاة إلا بعد التوحيد وإقامة التوحيد وقبول التوحيد ، لأنهم لو صلَّوا لم ينفعهم ما لم يوحدوا لا أنهم ليسو مخاطبين بفروع الشريعة ، ولهذا يقال لهم عندما يدخلون النار ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر:٤٢-٤٧] إذاً هذه يعاقبون عليها لأنهم مخاطبون بها ، ومن كان منهم يعمل أعمالاً صالحة ولم يوحِّد لا تنفعه أعماله الصالحة عند الله كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة:٥٤] ، الكفر مانع من القبول ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥] .

قال : ((**فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة**)) هذه الخمس: الفجر ، الظهر، العصر، المغرب، العشاء ؛ سبع عشرة ركعة في اليوم والليلة هي التي افترضها الله على العباد ، لم يفترض عليهم صلاةً غيرها، لو كان افتُرض عليهم صلاة غيرها مثل الوتر أو شيء من الرواتب لما قيل خمس صلوات ، لقيل مثلاً ست صلوات أو سبع صلوات ، فالذي افترضه الله على عباده وكتبه عليهم وأوجبه عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ، هذه فريضة الإسلام ، ما زاد على ذلك فهو تطوع ((هل علي شيء غيرها ؟ قال: لا إلا أن تطوَّع)) ما زاد عليها تطوع ؛ إن فعله أثيب ، وإن لم يفعله لم يعاقَب ، فالذي افترضه الله سبحانه وتعالى خمس صلوات في اليوم والليلة . قال ((**أعلمهم**)) أي أخبرهم وأنبئهم ((**أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة**)) .

((**فإن هم أطاعوك لذلك**)) ؛ وهذا فيه التدرج من جهة ، وأيضا البدء بالأهم فالمهم وهكذا ، التدرج : لم يعطهم هذه الأشياء دفعة واحدة ، لم يقل له قل لهم إن الله افترض عليكم كذا وكذا وكذا ، بل تدرج لم يعطهم هذه الأشياء دفعة واحدة ، والبدء بالأهم فالمهم فالأقل أهمية واضح ببدئه أولاً بالتوحيد ثم الصلاة ثم الزكاة وهكذا .

قال : ((**فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**)) وهنا ذِكرٌ للزكاة المفروضة قرينة الصلاة في كتاب الله ، قلَّ أن تُذكر الصلاة في كتاب الله إلا وتقرن بها الزكاة ، والزكاة فريضة كتبها الله سبحانه وتعالى على الأغنياء ، تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء .

قال: ((**صدقة تؤخذ من أغنياءهم**)) وهي قدرٌ يسير جداً من مال الغني ويُرد على الفقير .خص الفقير بالذكر مع أن مصارف الزكاة متعددة ليست خاصة بالفقير؛ قيل لأن الفقير هو أحوج هذه المصارف وأهم هذه المصارف ، ولهذا خُص بالذكر في هذا الحديث .

قال: ((**تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**)) ؛ قوله «فقرائهم» أيضاً أخذ منه أهل العلم أن الأولى بالزكاة أن تعطى لفقراء البلد ؛ لأنهم هم الذين يرون هذا الغني ويرون الأموال التي عنده ويرون تمتعه بها ، فإذا كانت زكاته تُنقل إلى بلاد بعيدة وهم إلى جنبه ويرون هذا الذي عنده ولا يحظون منه بشيء يفوت مقصد من مقاصد الزكاة الذي هو تحقُّق التكافل والمحبة والألفة والمعاني العظيمة التي تترتب على وجود الزكاة في المجتمع .

قال: ((**فإن هم أطاعوك لذلك**)) يعني قبِلوا إخراج الزكاة المفروضة ورضوا بذلك .

((**فإياك**)) أي احذر ((**وكرائم أموالهم**))كرائم منصوبة على التحذير ؛ ((إياك وكرائم أموالهم)) والمراد بكرائم الأموال أي : نفيسها وغاليها وثمينها وأحسنها وأجودها . ((إياك وكرائم أموالهم)) يعني احذر أن تأخذ كرائم الأموال أي النفيس ، فإذا أردت أن تأخذ مثلا من الماشية القدر أو النصاب الذي للزكاة فتأخذ من الوسط ، أوساطها ، لا تأخذ من النفيس ولا أيضا يُخرج من الرديء ، وإنما يؤخذ من الوسط .

قال : ((**واتق دعوة المظلوم**)) النبي صلى الله عليه وسلم يقول لمعاذ رضي الله عنه ، ومن هو معاذ في إمامته وفضله وعلمه وفقهه ومكانته !! يقول له النبي صلى الله عليه سلم : ((واتق دعوة المظلوم)) أي: بأن تراعي العدل مع الناس والإنصاف والبعد عن الظلم ، ((اتق دعوة المظلوم)) بأن تجعل بينك وبين دعوة المظلوم العدل ؛ تكون عادلاً لا تظلم أحدا لماذا ؟ لأن الإنسان إن ظلم أحداً عرَّض نفسه لدعوة مظلوم ، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ، أي لا تُرد مستجابة .

((**واتق دعوة المظلوم**)) أي بأن تحافظ على العدل مع كل فرد من الأفراد، وتتجنب الظلم وتبتعد عنه . ((**واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**)) أي أنها تُرفع إلى الله ولا تُرد ، وهي دعوة مسموعة مقبولة لا ترد .

والمظلوم المقهور الذي أخذ ماله عنوة واعتُدي عليه في ماله أو في غيره في عرضه في غير ذلك وقلبه مقهور ومتألم أشد الألم عندما يدعو بقهر وألم مقبلاً على الله ملحًّا عليه دعوته لا يردها الله سبحانه وتعالى بل هي دعوة مستجابة ؛ وهذا فيه تحذير شديد من الظلم وبيان لخطورته ، وأن الواجب على كل إنسان أن يتقي الظلم وأن يتجنب الظلم وأن يحذر من الظلم لأن الظلم ظلمات يوم القيامة . وهذا الظلم الذي يقع بين الناس سيكون القصاص في تلك المظالم يوم القيامة يوم يقف الناس بين يدي رب العالمين كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) الحقوق تؤدى ، الله جل وعلا يقول في الحديث القدسي الذي يرويه عبد الله بن أنيس وهو حديث صحيح ((يقول الله يوم القيامة : لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصها منها ، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عليه مظلمة حتى أقتصها منه ، قال حتى اللطمة)) ، والقصاص إنما يكون بالحسنات والسيئات لأن الناس يأتون يوم القيامة بدون الدراهم والدنانير والأملاك التي كانوا يمتلكونها في الدنيا ، يأتون ليس معهم شيء من الدنيا ، كما جاء في الحديث يأتون بهماً أي ليس معهم من الدنيا شيء ، فيكون القصاص بالحسنات والسيئات.

هذا الحديث العظيم هو يرسم منهج مبارك وعظيم في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، والشاهد منه للترجمة قول نبينا عليه الصلاة والسلام لمعاذ رضي الله عنه ((فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)) وفي رواية ((أن يوحدوا الله)) ، ففي هذا الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله ؛ أي الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص الدين له والبراءة من الشرك .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبد ورسوله نبيينا محمد وآله وصحبه أجمعين .